مجلة
دراسات إنسانية

تصدرعن جامعة مستغانم
ISSN: 2437-119X

مج(8)ع(1)/ (2022)، ص ص 43- 75

العلاقات التخاطبية في النص النبوي الشريف
بين بُعدها المقاصدي وواقعها الحضاري في حياة المسلم

أ.د مختارعبد القادرلزعر*[1]

قسم اللغة العربية، كلية الأدب العربي والفنون، جامعة مستغانم

تاريخ الاستلام: 2022/11/13 تاريخ القبول: 2022/12/11 تاريخ النشر: 2022/12/31

الملخص:

إن فهم الخطاب النبوي على جهة ما انمازت به سنته صلى الله عليه وسلم الواردة في كتب الصحاح محتاج إلى معرفة السياق بنوعيه: السياق اللغوي الداخلي، والسياق المقامي الخارجي: الحال والزمان والمكان والمتكلم والمخاطب؛ ذلك أنّ أغلى ما يميز متون السنة النبوية الشريفة تلكم الشمولية التي احتوتها خطابات النبي عليه الصلاة والسلام على اختلاف السياقات والمقامات؛ الأمر الذي أدى بهذه الشمولية أن تتوزع عبر حقائق وجودية كونية لازمت المسلم الموحّد منذ مجيء هذا النبي ولا زالت كذلك إلى قيام الساعة، والمصدر الأول والأساس الذي راح يستقي منه سيد البشر عليه الصلاة والسلام كل ما من شأنه أن يسير وفق رضاه، حقيقة وحكما ومنهجا وطريقة ومقصدا هو الخطاب القرآني.

الكلمات المفتاحية: النص النبوي؛ العلاقات التخاطبية؛ المقاصد؛ الحضارة؛ السياق اللغوي.

Abstract:

Understanding the prophetic discourse in terms of what was distinguished by the Sunnah of the Messenger Muhammad, may God's prayers and peace be upon him, which is contained in the Sahih books, needs to know the two types of context: the internal linguistic context, and the external context context: case, time, place, speaker and addressee; This is because the most precious thing that distinguishes the texts of

* **أ.د مختارعبد القادرلزعر** ، أستاذ في فلسفة اللغة واللسانيات قسم اللغة العربية، كلية الأدب العربي والفنون، جامعة مستغانم(الجزائر)،abdelkaderlezar2014@gmail.com

the honorable Sunnah of the Prophet is the comprehensiveness that the speeches of the Prophet, may God's prayers and peace be upon him, contained in different contexts and positions. The thing that led this comprehensiveness to be distributed through universal existential facts that have been necessary for the monotheistic Muslim since the advent of this Prophet and remain so until the Day of Judgment. The purpose is the Quranic discourse.

Keywords: Prophetic Text; Conversational Relations; Purposes; Civilization; Linguistic Context.

مقدمة:

يحتاج كل من يروم فهم واقع ما نطق به سيد البشر- صلى الله عليه وسلم- واستقاء الأحكام والتكاليف التي دعا إليها بإذن صاحب الرعاية المطلقة وهو الله تعالى وتقدس، إلى أن يعرف مصدر ما يمكن أن نطلق عليه بالخطاب النبوي، تصورا ومنهجا وطريقة ومقصدا؛ الأمر الذي جعل من هذا الخطاب النبوي يحتوي على سمة أساسية هي في الأصل قائمة في رحاب واقع الوحي القرآني، وهي تلكم الشمولية المطلقة الاستغراقية التي استغرقت-بإذن الواحد الأحد- الزمان والمكان؛ فكان حينها الخطاب النبوي ممثلا فيما اصطلح عليه أهل الحديث بالسنة النبوية، يحيا في رحابها المسلم الموحّد مدركا ومحققا ومجسّدا تلكم الحقائق الربانية والإيمانية والأخلاقية التي أُمر بها النبي عليه الصلاة والسلام أن يدعو أمته إليها.

فإذا استشعر المسلم الحريّ الفطن صاحب البصيرة النيرة والفكر الثاقب أنّه أمام خطاب نبوي شامل، صادر مما بثه الله تعالى في هذه الذات النبوية النقية الزكية الطاهرة من أسرار؛ فإنّه يسهل عليه إدراك أمرين أساسيين احتوى عليهما الخطاب النبوي الشريف: أحدهما يتجسّد في سرّ الاختيار الرباني لهذا المخلوق صلى الله عليه وسلم، وذلك من جهة ما يتماشى مع طبيعة الحق الذي ارتضاه الله تعالى لنفسه أولا، ثم للغاية التي بُعث من أجلها هذا النبي الكريم(التوحيد وشمولية العبادة)، والثاني في استحضار تلكم الحقائق التي أشار إليها الخطاب النبوي في كثير من السياقات والمقامات التي جاءت ملازمة لما هو قائم في عالم الوجود الإنساني من جهة(العبادة والمعاملة) والوجود المطلق من جهة أخرى(التدبر في

ملكوت الله تعالى)؛ الأمر الذي يوفر للمسلم الموحّد المتبصر توطين نفسه على أنّه أمام نص أو خطاب موحى من عند الله تعالى، متمثلا في كتاب الله تعالى وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، ومتمتعا بخصائص ذاتية، تكسبه العصمة، والخلو على وجه الإطلاق من كل نقص وخلل واضطراب.

على هذا الاعتبار؛ فإنّ فهم الخطاب النبوي على جهة ما انمازت به سنته صلى الله عليه وسلم الواردة في كتب الصحاح محتاج إلى معرفة السياق بنوعيه: السياق اللغوي الداخلي، والسياق المقامي الخارجي: الحال والزمان والمكان والمتكلم والمخاطب؛ذلك أنّ أغلى ما يميز متون السنة النبوية الشريفة تلكم الشمولية التي احتوتها خطابات النبي عليه الصلاة والسلام على اختلاف السياقات والمقامات؛ الأمر الذي أدى بهذه الشمولية أن تتوزع عبر حقائق وجودية كونية لازمت المسلم الموحّد منذ مجيء هذا النبي ولا زالت كذلك إلى قيام الساعة.

إنّ الخطاب القرآني هو المصدر الأول والأساس الذي راح يستقي منه سيد البشر عليه الصلاة والسلام كل ما من شأنه أن يسير وفق رضاه، حقيقة وحكما ومنهجا وطريقة ومقصدا؛ والدليل على ذلك هو ذلكم الحكم الرباني الذي أشار إليه الخالق سبحانه وتعالى في محكم تنزيله{إنّا نحنُ نزّلنا الذكر، وإنّا له لحافظون}(الحجر: الآية 9). قال القرطبي(ت 1427ه) في تفسيرها" إنا نحن نزلنا الذكر، يعني القرآن، وإنا له لحافظون، من أن يُزاد أو ينقص منه"[1].

لقد انعكس هذا السرّ الربّاني القائم في كلامه سبحانه على شخصية النبي عليه الصلاة والسلام، وهو ما يجده المسلم الموحّد في سيرته العطرة عليه السلام، وتعاملاته مع واقع الصحابة عليهم الرضوان؛ الأمر الذي أدى بعائشة رضي الله تعالى عنها حينما سئلت عن خُلقه صلى الله عليه وسلم؛ قالت"كان خلقه القرآن"[2].

---

[1] – القرطبي: الجامع لأحكام القرآن. مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 180/1.

[2] – مسلم: صحيح مسلم. دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل ومن ناه عنه أو مرض، ص: 345، حديث رقم: 746.

ولعل هذه الحقيقة الوجودية الكونية التي تحلى بها سيد البشر صلى الله عليه وسلم لم تكن مقتصرة عليه فقط، بل هي أمر رباني وغاية ايمانية ومقصد شريف، لازم أنبياء الله ورسله؛ على أساس أنّه-على حد اعتقاد ابن القيم (ت1412ه)-"... لا سبيل إلى السعادة والفلاح، لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل، ولا سبيل إلى معرفة الطيب، والخبيث على التفضيل إلا من جهتهم، ولا ينال رضا الله البتة إلا على أيديهم؛ فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم وما جاؤوا به ؛ فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأقوال والأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه، والعين إلى نورها، والروح إلى حياتها"[1].

إنّه النبي المختار العالم بأسرار الحقائق والأشياء وفق ذلكم السرّ الرباني الذي بثّه الله تعالى في ذاتيته عليه الصلاة والسلام، وهو ما أقرّ به الوحي القرآني بقوله{وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى}(النجم: الآية3-4)؛ الشيء الذي جعل من تربيته صلى الله عليه وسلم لعالم الخلق أن تؤتي أكلها بإذن الخالق تعالى؛ فلم تكن تربيته عليه السلام"...مجرد نتاج لجملة الظروف والمتغيرات التي أحاطت به، وشكّلته، وإنّما اختص بتربية ربانية تمثلت في عديد من المظاهر التي تؤكد كيف أنّ رعاية الله كانت تظلله، فضلا عن التزامه صلى الله عليه وسلم التزاما كأقصى ما يكون الالتزام بكل ما كان سبحانه وتعالى يوجهه به"[2].

من هذا المنطلق كانت صفات النبي الحبيب عليه الصلاة والسلام يحدوها الكمال من كل جانب؛ صفة، وخُلقا، وموقفا، ودعوة، وهدفا، وصبرا، واقتداء؛ ذلك أنّه عليه السلام كان "... مستكملا للصفات التي لا غنى عنها في إبلاغ كل رسالة عظيمة من رسالات التاريخ، كانت له فصاحة اللسان واللغة، وكانت له قدرة على تأليف القلوب وجمع الثقة، وكانت له قدوة الإيمان بدعوته وغيرته البالغة على نجاحها"[3].

---

[1] – ابن القيم: زاد المعاد في هدي خير العباد. مؤسسة الرسالة، ط2، بيروت. لبنان. 96/1.

[2] – سعيد علي اسماعيل: السنة النبوية رؤية تربوية، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ص:153.

[3] – سعيد اسماعيل: أصول التربية الإسلامية، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، مصر، ص:164.

إنّ المقام الاستشهادي بهذه الذات النقية الزكية الطاهرة على جهة الاقتداء واتخاذها نبراسا يستضاء بها في كل شيء، إنّما كان منطلقه ممن وصفه من السماء إلى الأرض بحكم وحكمة وتقدير لا يأتيه الباطل على الإطلاق. إنّه قوله تعالى{لقد كان لكم في رسول الله أُسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا}(الأحزاب: الآية 21). وهي حقيقة وجودية كونية يتحقق في رحابها بدون شك ولا ريب "حسن تربية ناشئتنا وأجيالنا الصاعدة، وحفظهم من زيغ وضلال، وحمايتهم من كل تفسخ وانحلال، وخاصة في هذا العصر المادي الذي تفشت فيه أسباب الغواية والفساد والإلحاد"[1].

على هذا المقصد جاءت سيرته العطرة النقية صلى الله عليه وسلم بالدروس والعبر والمواعظ، التي تعددت بتعدد السياقات والمقامات والأحوال، وهي بدون شك تفي بالغرض المقصود القائم فيما يمكن أن نطلق عليه بالخطاب النبوي الشريف، لاحتوائه على شمولية استغراقية تستغرق الزمان والمكان في تلازمه مع الواقع المتغير والمتجدد.

لقد كان نبي الرحمة صلى الله عليه وعلى آله وصحبه معلّما وهاديا ومبينا وناصحا ومرشدا للبشرية جمعاء، وذلك وفق ذلكم الوصف الرباني القائم في السر الوجودي إلى قيام الساعة، حين قال في شأنه ومقامه الشريف الربّ سبحانه وتعالى{هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم ءاياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ،وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين}(الجمعة: الآية 2). والحقيقة نفسها أكدها النبي عليه الصلاة والسلام مصداقا لما بينه رب العباد، في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن جابر رضي الله تعالى عنه عن النبي عليه الصلاة والسلام قال" إنّ الله لم يبعثني معنتا ولا متنعتا، ولكن بعثني معلما مسيرا"[2].

انطلاقا من هذه الحقيقة الكونية الربانية التي لازمت النبي عليه السلام المختار، راح الخطاب النبوي الشريف يتصف بهذا النوع من الإطلاق الملازم لما هو قائم في واقع الوحي القرآني على سبيل الاختيار والاصطفاء من جهة، والملازم في الوقت نفسه لتلكم

[1] – عبد الحميد الزنتاني: أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية، ط2، الدار العربية للكتاب، لبنان، ص:890.

[2] – مسلم: صحيح مسلم. المرجع السابق. كتاب الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقا إلا بالنية، ص:677، حديث رقم: 1378.

الشمولية التي تستغرق الزمان والمكان من جهة أخرى؛ الأمر الذي جعل أسلوبه وخطابه وتبيانه صلى الله عليه وسلم، تنماز بأسلوب"...تربوي فذ، يراعي حاجات الفرد المتعلم وطبيعته، ويأمر بمخاطبة الناس على قدر عقولهم، أي يراعي الفروق الفردية بينهم، كما يراعي مواهبهم واستعداداتهم وطبائعهم، ويراعي في المرأة أنوثتها، وفي الرجل رجولته، وفي الكهل كهولته، وفي الطفل طفولته"[1].

إذا كان الأمر كذلك-والحال هذه- فإنّ أغلى ما انماز به الخطاب النبوي عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، هو الشمولية التي تجعل الحادثة أو الظاهرة أو القضية تتماشى مع هذه الشمولية وفق ما يستوجبه التصور المعرفي والمنهجي والإجرائي المسلّط على هذا النوع من الشمولية الملازمة لواقع الخطاب النبوي عليه السلام، وعليه يمكننا أن نوجه بعض التساؤلات في حق هذه الشمولية من منظور التصور اللساني الحديث فنقول والله المستعان ما يأتي:

- هل ما نطق به سيد البشر يرقى أن يحقق انسجاما واتساقا وترابطا مع ما اتفق عليه النظريات اللسانية العالمية في ضبطها لمفهوم الكلام من جهة، والخطاب ومستلزماته من جهة أخرى؟
- هل مفهوم العلاقة القائمة في صور تحليل الخطاب من منظور التصور الغربي موجودة وقائمة في واقع ما نطق به سيد البشر في كثير من المقامات؟
- هل العلاقات التخاطبية القائمة على مبدأ الحوار والتحاور من منظور ما حدّده الغربيون هي موجودة في خطابات النبي عليه الصلاة والسلام؟ و إذا سلمنا بوجودها؛ فهل هي تنصاع إلى مثل هذه التحديدات التي منبعها فلسفي غربي، أو تتجاوز ذلك لتصل إلى مقامات وأحوال ومشاهد لم يستطع التصور الغربي الوصول إليها ولا الإشارة إليها؟
- للعلاقات التخاطبية عدة استراتيجيات أو إجراءات مقاصدية تنبه إليها التصور الغربي وسار عليها في كثير من القضايا؛ فهل هذه الاستراتيجيات موجودة بكاملها في

[1] – عبد الرحمن النحولاوي: أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والأسرة والمجتمع، دار الفكر ، دمشق، سوريا، ص:26.

خطابات النبي عليه السلام؟ إذا سلمنا بوجودها جملة وتفصيلا؛ فهل اقتصرت على تلكم الاستراتيجيات وفق تصورها الغربي(الواقع والأسيقة التي سيقت من أجلها)؟ أم أنّها جاوزت تلكم القيود لتصل إلى شمولية لا انقطاع لها؛ لأنّ منبعها ذلكم الاصطفاء والاختيار الرباني القائم في الذات النبوية والذي جعل من خطاباته عليه الصلاة والسلام تعطي لأي واقع ثقافي أو حضاري أو فكري يعيشه المسلم الموحّد أن يستضيء بنوره الرباني عن طريق تلكم النفحات الربانية النبوية التي تتهاطل مثل المطر الغزير، حاوية أسيقية متنوعة لازمت الخطاب النبوي في مشاهد عدة وأحوال لا تنقطع إلا بانقطاع حركية الوجود المطلق؟

نحن على يقينٍ أنّ ما نطق به سيد البشر عليه الصلاة والسلام سيجعل من واقع الخطاب باقيا على أصله، وباقيا على تنوعه الدلالي، وباقيا على معجزته ما بقي الالتجاء إليه من قبل من عرفوا قدره ومقامه، سواء ممن آمن به إيمانا جازما أو من هم في كفر وجحود ونكران؛ بحكم أنّ الفطرة القائمة فيهم تأبى إلا أن تظل مؤمنة بهذا النبي الكريم عليه السلام.

ولما كانت طبيعة عتبة عنوان هذا البحث أو المقال تنصب أساسا فيما نطق به سيد البشر صلى الله عليه وسلم وفق ذلكم الخطاب الذي حقّق في مضامينه واستغراقيته ومستلزماته ما يتماشى مع العلاقات التخاطبية؛ فإنّ مسار التناول يقتضي منا أن نطل على بعض المفاهيم التي تخص معنى التخاطب واستراتيجياته من منظور التصور اللساني الغربي، محاولين بعدها أن نجسّد معالم هذه العلاقات في خطابات النبي عليه الصلاة والسلام؛ في الوقت الذي نقر فيه أننا سنجد الشمولية القائمة في الخطاب النبوي أقوى بكثير مما أشارت إليه النظريات اللسانية الغربية بمعية تحليل الخطاب؛ الشيء الذي جعل من هذه الشمولية الخطابية النبوية أن يتخذها المسلم منهجا وطريقة ومقصدا ليعيش زمنين اثنين: زمن قام في ذلكم الواقع الذي عاش فيه النبي عليه الصلاة والسلام مع صحبه الكرام، وزمن هو قائم مع المسلم يحاول أن يجسد معالم هذا الدين الإسلامي وأخلاقياته عن طريق ما نطق به النبي عليه السلام في واقعه الحضاري، وهو ما يجعل هذا النوع من الخطاب النبوي عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم أن يكون بدون شك صالحا لكل زمان ومكان.

الاستراتيجيات التخاطبية؛ تصور غربي وحقيقة معرفية مشتركة:

لا ينكر عاقل حري عرف قدر الأشياء في عالم الأشياء أنّ كل إطلاق مفاهيمي أو مصطلحاتي أو إجرائي له منبعه المعرفي والفلسفي والفكري الذي انبجس منه فأصبح مستقلا في حد ذاته وفق مدونة لا يستطيع أن ينسلخ عنها جملة وتفصيلا، وهذا الأمر مثلما نجده في التصور الغربي هو موجود أيضا في التصور العربي.

لكن بعيدا عن الحمية الجاهلية التي لا نريدها في هذا السياق والمتعلقة بقضية الأسبقية للتراث العربي على الغربي، نقرّ إقرارا جازما وفق مبدأ التصور المعرفي أنّ قضية الاستراتيجيات القائمة في عالم الخطاب والتخاطب من حيث التناول والإجراء والمقاصد تعود في كثير من المقامات إلى ما أسسه الفكر الغربي تأسيسا معرفيا ومنهجيا وإجرائيا اختلف باختلاف طبيعة الحقول والمجالات المعرفية؛ مما خلّف فيما بعد عدة رؤى في مفهوم الاستراتيجية؛ تصورا ومنهجا وطريقة.

ثم إنّ الحديث عن هذه المعايير الثلاثة من منظور استراتيجيات التخاطب على حسب الضابط التداولي، يجعلنا نغترف شيئا من لوازم الاستراتيجية من جهة أخرى تتعلق بالفعل التعليمي البيداغوجي، ونخص بالذكر الاستراتيجية التوجيهية والاستراتيجية التلميحية والاستراتيجية الإقناعية، ولعل الأسباب في اغترافنا من هذه الاستراتيجيات يعود في أساسه الأول إلى الأغراض الآتية:

- الحديث عن العلاقات التخاطبية هو حديث عن الفعل التربوي وفق ما يستدعيه كل من فعل التعليم والتعلم معا، وهو ما جسدته كثير من خطابات النبي عليه الصلاة والسلام.
- لا يمكن أن تتحرك العلاقات التخاطبية إلا وفق المبادئ الأساسية التي تصب في عمق الاستراتجيات التخاطبية التي توقف عندها اللسانيون التداوليون.
- لعل أهم ما تقوم به العلاقات التخاطبية في بحثنا هذا هو اعتمادها على الاستراتيجيات الثلاث؛ على أساس أنّ التوجيه والتلميح والإقناع من أهم الاستراتيجيات التي انماز بها الخطاب النبوي عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم(الباث أو مرسل الخطاب) وواقع المتلقين(الصحابة عليهم الرضوان على اختلاف مستوياتهم) مراعيا أهم الأسيقة والمقامات التي تتوزع فيها هذه

الاستراتيجيات الثلاث على حسب ما يقتضيه الفعل التعليمي التوجيهي. لذا اخترنا هذه الاستراتيجيات؛ لما فيها من أهمية في شأن منزلة العلاقات التخاطبية فيما نطق به النبي عليه السلام.

الاستراتجيات التوجيهية؛ استراتيجية سلطوية في العلاقات التخاطبية:

يعتقد أهل الخطاب عامة والتداوليون على وجه أخص أنّ نجاح الاستراتيجية التوجيهية ينبغي أن يكون مصحوبا بشرط واحد تتفرع منه كل الإجراءات الأخرى التي تعطي للتوجيه قيمته العلمية والمنهجية والإجرائية. إنّه شرط **السلطة** التي ينبغي أن يتحلى بها المرسل؛ على أساس أنّ استعمال الاستراتيجية التوجيهية ينبغي أن يكون "نابعا عن علاقة سلطوية بين طرفي الخطاب. وتتفاوت هذه العلاقة من التباين الشديد حتى التقارب الملموس. وتشكّل عاملا من عوامل نجاح الاستراتيجية التوجيهية؛ فلو كان طرفا الخطاب على درجة واحدة، لاستعاض المرسل باستراتيجية أخرى؛ لأنّه يعلم أنّه لن يفلح في استعمالها، ولن يستطيع أن ينجز بها فعلا ما، ممّا يجعله لا يفكر في استعمالها، لئلا يصبح خطابه مثار سخرية مع عدم ضمان نجاحه في توجيه المرسل إليه عندما تعوزه السلطة"[1]؛ الأمر الذي جعلنا ندرك إدراكا يقينيا أنّ سلطة النبي عليه السلام فيما كان ينماز به خطابه المحكم والأقوم، كانت تتوزع على حسب مقامات علاقة الخطاب بمنزلة المتلقين، غير أنّ هذا النوع من التوزيع كان ملازما لتلكم الهبة والرهبة والامتثال من قبل الصحابة عليهم الرضوان، لأنّ ما ينطق به هذا النبي عليه السلام في الغالب من منبع الوحي، وهو الأمر الذي أدى بمن يسمعه من لدن المكلفين أن يستشعر بتلكم العظمة والاستحياء والتواضع والخشية والتقدير الملازم : أولا لخطاب النبي المرسل فهو من الله تعالى، وثانيا لما ينماز به هذا الخطاب من أحكام وأسرار وحقائق، وثالثا لما صاحب هذا الخطاب النبوي تطبيقا وتجسيدا منه عليه السلام-القدوة- ثم دعوى لمن يسمع مضامين هذا الخطاب النبوي بالتحلي والتأسي به. وهنا تتحرك معالم الاستراتيجية التوجيهية وفق شمولية الخطابات

[1] – عبد الهادي بن ظافر الشّهريّ: استراتيجيات الخطاب– مقاربة لغوية تداولية– ط2، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع. عمان. 2015. 2/85-86.

النبوية في ضوء العلاقات التخاطبية القائمة بين النبي عليه السلام وواقع المتلقين من الصحابة عليهم الرضوان.

إنّ الناظر والمتأمل في هذه المسوغات المشار إليها في شأن الاستراتيجيات التوجيهية، يجد أنّ الطابع الغالب فيها يقوم على تصور تجريدي بين عالم المرسل والمرسل إليه، وهو التصور الذي ظل يسير وفق تلكم المسوغات الاستراتيجية التوجيهية تبعا للسياق التجريدي العقلي البعيد عن الواقع الملموس بين المرسل والمرسل إليه؛ فظل الفعل الاستراتيجي التوجيهي يتعامل مع العلاقة التخاطبية عموديا-على حد تعبير التصور اللساني- وليس أفقيا؛ لأنّ هناك فرقا شاسعا من جهة مسوغات استعمال الاستراتيجية التوجيهية بين سياقها البيداغوجي العمودي والأفقي؛ ولعل السياق الأفقي في هذا المقام بالذات يستطيع أن يعطي للعلاقة التخاطبية بين المرسل والمرسل إليه عدة حقائق معرفية وإجرائية في ظل استعمال مسوغات الاستراتيجيات التوجيهية.

الاستراتيجية التلميحية، استراتيجية عدولية سياقية مقامية:

لعل من الإنصاف النزيه الذي يعطي لكل شيء قدره من حيث التصور والمنهج والوظيفة، أن ننبه إلى أنّ إطلاق الاستراتيجية التلميحية من منظور العلاقات التخاطبية التي دعت إليها اللسانيات التداوليات، لها ما يبررها على سبيل مبدأ الإسقاط المشروع وفق ما أشار إليه القدامى من العرب رحمة الله عليهم فيما سُمي بقضية العدول، وهو الخروج من حالة إلى حالة أخرى على حسب ما يقتضيه السياق؛ حكما وقرينة.

ولما كان هذا النوع من الاستعمال الذي يتماشى إلى حد كبير مع الاستراتيجية التلميحية واردا على ألسنة كثير من القدامى؛ فإنّنا سنكتفي بنص واحد من التراث، ثم نعقب عليه وفق ما يتماشى مع الاستراتيجية التلميحية من جهة الأصل، وواقع العلاقات التخاطبية من جهة الوظيفة التي تحقق نوعا من التلازم مع كثير من خطابات النبي عليه الصلاة والسلام.

يقول فخر الدين الرازي (ت 605هـ) في هذا الصدد ما بيانُه إنّ "... العدول عن الحقيقة إلى المجاز: إما لأجل اللفظ، أو المعنى، أو لهما [...] وأما الذي يكون لأجل المعنى؛ فقد تترك الحقيقة إلى المجاز، لأجل التعظيم، والتحقير، ولزيادة البيان، ولتلطيف الكلام: أما التعظيم فكما يُقال: سلام على المجلس العالي؛ فإنّه يترك الحقيقة-ههنا- لأجل الإجلال[...] وأما زيادة البيان؛ فقد تكون لتقوية حال المذكور، وقد تكون لتقوية الذكر: أما الأول

فكقولهم: رأيت أسدا؛ فإنّه قال: رأيت إنسانا يشبه الأسد في الشجاعة، لم يكن في البلاغة كما إذا قال: رأيت أسدا [...].وأما تلطيف الكلام فهو: أنّ النفس إذا وقفت على تمام كلام، فلو وقفت على تمام المقصود لم يبق لها شوق إليه أصلا؛ لأنّ تحصيل الحاصل محال، وإن لم تقف على شيء منه أصلا، لم يحصل لها شوق إليه، فأمّا إذا عرفته من بعض الوجوه دون البعض، فإنّ القدر المعلوم يشوّقها إلى تحصيل العلم بما ليس بمعلوم؛ فيحصل لها ، بسبب علمها بالقدر الذي علمته، لذة؛ وبسبب حرمانها من الباقي، ألمٌ؛ فتحصل هناك لذّاتٌ، وآلامٌ متعاقبة، واللذة إذا حصلت عقيب الألم، كانت أقوى، وشعور النفس بها أتم"[1].

لعل أهم ما يمكن استنتاجه فيما أشار إليه الرازي في شأن العدول وصوره السياقية/المقامية، والذي له بعض التقاطعات مع الاستراتيجية التلميحية، يكمن فيما يأتي:

- إنّ الأصل في الإطلاق ما سار على سبيل الحقيقة، وهو ما يؤدي إلى عدم التعدد المعنوي في جانب العلاقة القائمة بين اللفظ والمعنى.
- خروج هذه العلاقة من الحقيقة إلى ما يقتضيه السياق المقامي هو في الأصل قائم على مبدأ العدول الذي تتوزع استراتيجيته على حسب العلاقة التخاطبية القائمة بين المرسل والمرسل إليه، وهو ما فصل فيها الرازي بشكل واضح على حسب المقامات التي ذكرها: التعظيم، والتحقير، ولزيادة البيان، ولتلطيف الكلام.
- لعل صور العدول التي تنجز عن طريق العلاقة التخاطبية بين المرسل والمرسل إليه من تعظيم وتحقير وتلطيف وهلم جرا، قائمة على استراتيجية يتخذها المرسل وهو يرسل كلاما إلى المرسل إليه، مما يستدعي من فعل الإرسال أن ينبه المرسل إليه إلى أنّ ثمة تلميحات داخل المرسلات اللغوية التي تختلف مقاصدها باختلاف السياقات والمقامات. وإنّ هذا النوع من التعامل مع واقع الخطاب في ظل الاستراتيجية التلميحية من شأنه أن يعطي للعلاقات التخاطبية بين المرسل

[1] – الفخر الدين الرازي: المحصول في علم الأصول. علّق عليه ووضع حواشيه محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية. بيروت، ط1، 1999. 152/1.

والمرسل إليه نوعا من التنفس الذي تتنفس في رحابه هذه العلاقة التخاطبية حتى تستطيع أن تؤدي وظيفتها التواصلية.

الاستراتيجية الإقناعية؛ ليست استراتيجية ذاتية معزولة:

طرفا من الحديث وليس كلّه في شأن هذه الاستراتيجية، نقول إنّ ما وفّق في تبيان المنظّر اللساني الغربي أوليفي روبول؛ حين حدّد هذه الاستراتيجية على أنّها لا تؤمن بمبدأ الانعزال الذاتي فيما له علاقة بالسياق التخاطبي القائم بين المرسل والمحيط الذي يكون فيه؛ إذ المحيط بتنوعاته الوظائفية من سياقية وبلاغية وتربوية وتأويلية وهلم جرا ،يمثل بحق المساهمة الفعّالة مع مسوغات الاستراتيجية الإقناعية التي تحوي في باطنها كلها المؤهلات لتحقيق هذا الرابط بينها وبين الأسيقة.

يقول روبول نقلا عن الغروس المبارك ما بيانه"... ولكي تكون الوظيفة الإقناعية أوّلية؛ فإنّها ليست الوحيدة. وإذا كانت البلاغة هي فن الإقناع بالخطاب، وجب التأكيد أنّه-أي الخطاب-، ليس أبدا حدثا معزولا، بل العكس من ذلك، فإنّه يقابل خطابات سبقته، أو ستليه والتي قد تكون ضمنية. فالقاعدة الأساسية للبلاغة هي أنّ الخطيب-الذي يخطب أو يكتب بهدف الإقناع- ليس أبدا وحيدا، وإنّه يعبّر دائما عن ذاته مع أو ضد خطباء آخرين، أي أنّ هناك دائما ارتباطا بخطابات أخرى"[1].

من هذا المنطق كانت الاستراتيجية الإقناعية تحقق نوعا من التلازم في ظل واقع العلاقات التخاطبية مع بعض المسوغات التي هي في الأصل امتداد للإطار التواصلي الإبلاغي الذي يحققه الإقناع وفق استراتيجية تتماشى مع واقع التخاطب القائم بين المرسل والمرسل إليه؛ الشيء الذي يؤدي في نهاية المطاف إلى تحقيق نوع من المشاركة في تلازمها مع مبدأ الحوار، وهذا ما أكد عليه طه عبد الرحمن حين عد أنّ المرسل"... عندما يطالب غيره بمشاركته اعتقاداته؛ فإنّ مطالبته لا تكتسي صيغة الإكراه، ولا تدرج على منهج القمع، وإنّما تتبع في تحصيل غرضها سبلا استدلالية متنوعة تجرّ الغير جرّا إلى الإقناع برأي المحاور[...] وقد تزدوج أساليب الإقناع بأساليب الإمتاع، فتكون، إذ ذاك، أقدر على التأثير

[1] – أوليفيير وبول: طبيعة البلاغة ووظيفتها. ترجمة: الغروس المبارك. مجلة نوافذ، النادي الأدبي بجدة، ع16، 2001. ص:75.

في اعتقاد المخاطب، وتوجيه سلوكه لما يهبها هذا الإمتاع من قوة من استحضار الأشياء، ونفوذ في إشهادها للمخاطب، كأنّه يراها رأي العين"[1].

إنّه الإقناع السّاري مع طبيعة العلاقات التخاطبية بين المرسل والمرسل إليه قصد تجسيد معالم الحوار والتحاور في ظل فعل المشاركة التي تختلف باختلاف السياقات والأحوال والمقامات. تماما ما يجده الدارس للخطابات النبوية هذا النوع من الإقناع الجاري على لسان حال النبي عليه السلام في سياقات مقامية متعددة اختلفت باختلاف مجريات الفعل القصدوي الملازم لمقصدية النبي من وراء ما أمره رب العباد بتبليغه للخلق؛ الشيء الذي جعل الخطاب النبوي يحقق نوعا من التلازم غير محدود ومقيد مع العلاقات التخاطبية، سواء بينه وبين المجالس التي كان يلقي فيها الخطابات، أو بين ما حفظته لنا كتبة الحديث وما تلقته النفوس الموحدة المؤمنة به عليه السلام؛ فراحت تقتدي بهذه الخطابات وكأنّها دائما تستحضره عليه السلام في واقعها الحضاري والثقافي والاجتماعي والنفسي الذي تعيشه؛ هي إذن خطابات باقية مستمرة ما دام الوجود الكوني باقيا على حاله وأصله إلى قيام الساعة.

نماذج من أحاديث النبي في ضوء العلاقات التخاطبية:

يقف عقل المسلم الموحد أمام هذا الزخم الهائل من أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام وقفة تدبر وتأمر واستحضار، وذلك لما احتوته من علاقات تخاطبية تربو بكثير عما أشار إليه الفكر اللساني التداولي في تعامله مع مستلزمات العلاقات التخاطبية، سواء وفق بعدها التواصلي أو الإبلاغي أو التداولي أو أي مقاربة حاولت أن تقيّد بها وهي تتعامل مع واقع العلاقات التخاطبية؛ ذلك أنّ من عادة سيد الخلق أثناء مخاطبته للصاحبة، لا يتجه خطابه نحو مسار أو اتجاه واحد لا يخرج عنه، بل هو خطاب له عدة أبعاد تتجدد بتجدد المتلقين له، وهنا تتحرك العلاقات التخاطبية في خطابات النبي عليه السلام لتعطي عدة أبعاد معرفية ومنهجية وفكرية وغيرها تبعا لما تقتضيه سياقات المقال والأحوال الجارية بين النبي عليه السلام وواقع المتلقي.

[1]– طه عبد الرحمن: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2. 2000. ص:38.

ولكي نكون عمليين فيما وسمناه في عتبة عنوان هذا المقال العلمي، ستجدنا نختار عددا معينا من أحاديث المصطفى على اختلاف مقاصدها، لنبين مدى شمولية الخطاب النبوي: أولا لمعنى التخاطب، وثانيا: لتعدده القصدوي على حسب مقتضيات السياق والمقام معا، وثالثا: لشموله على مستلزمات تخاطبية لها ما يبررها في التصور اللساني التداولي الغربي، ومن ثم يمكن عدّ هذا النوع من التصور في الخطابات النبوية أنّه سابق من جهة الإرهاص ما هو جار في المجال اللساني الغربي، ورابعا وهو الأهم المجال الواسع والأرحب لتماشي هذه التخريجات مع حياة المسلم الموحّد في هذا الزمن وفي غيره من الأزمان، وهنا تتحرك صلاحية الخطاب النبوي لكل زمان ومكان، مهما تعددت فيه النظريات الغربية والمرجعيات سيظل هذا الخطاب النبوي باقيا وثابتا ومستمرا يعطي من خيره الواسع الذي لا ينقطع إلا بانقطاع حركية الوجود المطلق.

الحديث الأول:

أَخْبَرَنَا إِسْحَقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، قَالَ: حَدَّثَنَا النَّضْرُ بْنُ شُمَيْلٍ، قَالَ: أَنْبَأَنَا كَهْمَسُ بْنُ الْحَسَنِ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ بُرَيْدَةَ، عَنْ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ قَالَ: حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ؟ قَالَ: «أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» قَالَ: صَدَقْتَ .فَعَجِبْنَا إِلَيْهِ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ، ثُمَّ قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ؟ قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْقَدَرِ كُلِّهِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ» قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ؟ قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ». قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ؟ قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ بِهَا مِنَ السَّائِلِ». قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا؟ قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ». قَالَ عُمَرُ: فَلَبِثْتُ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا

عُمَرُ هَلْ تَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟ «قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَتَاكُمْ لِيُعَلِّمَكُمْ أَمْرَ دِينِكُمْ"[1].

تعقيب في رحاب العلاقات التخاطبية:

الثابت لدى المختصين في مجال تحليل الخطاب أنّ العلاقة التخاطبية لا تتحرك إلا إذا وجد باث يرسل الخطاب ومتلقي يتلقاه، مما يتحقق عن طريق هذا اللقاء شرط المحاورة التي تختلف باختلاف مقامات الحديث القائم بين مرسل الخطاب ومتلقيه؛ الشيء الذي جعل هذا الضابط في شأن التخاطب أن يخلف لنا فيما بعد أبعادا تواصلية/ تداولية توزعت على حسب طبيعة الحقول المعرفية، وهذا ما يجده المهتم في الدراسات اللسانية عامة وتحليل الخطاب على وجه أخص.

لكن قد يظن ظان أنّ هذا النوع من التحديد في شأن مفهوم العلاقة التخاطبية لربّما لا يتماشى مع بعض الأسيقة التخاطبية في موروثنا الديني، لاسيّما تلكم التي اهتمت بالعلاقة الربانية الإيمانية التوحيدية التي دعا إليها الوحي القرآني ونصت عليها كثير من خطابات النبي عليه السلام على سبيل البيان والتوضيح لما هو قائم في كلام الله تعالى؛ كيف ذلك؟

إنّ المتمعن في حديث الإحسان كما اشتهر عند كثير من أهل الحديث، يجد سياق المحادثة الجارية على لسان حال النبي من حيث الخبر، والجارية على لسان حال ناقل الخبر من حيث السند والرواية، يجدها قد احتوت على عدة أسرار تصب في عمق معنى التخاطب من بابه الواسع. ولا ضير في أن نشير إلى أهمها أثرا فنقول والله المستعان ما يأتي:

- ✓ لعل من أهم أدب الخطاب السّاري بين من يسأل ويجيب أن يتحلى صاحب السؤال بما يؤهله سلفا أن يأخذ شيئا من لوازم ما يجهله إن كان في سياق التعليم، أو ما يحقق تأكيدا ويقينا وإخبارا على منزلة معينة إن كان في سياق البُشرى. وهذا النوع من الحقيقة تجسّد في العبارة التي جاءت لتبين مستلزمات ما يقوم عليه شرط العلاقات التخاطبية بين الباث والمتلقي، وهو قوله" **حتى جلس إِلَى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فأسند ركبتيه**

[1] – ينظر صحيح مسلم، الإيمان(8). وسنن الترميذي، الإيمان(2610)، وسنن النسائي، الإيمان وشرائعه (4990)، ومسند الإمام أحمد ؛ مسند العشرة المبشرين بالجنة، (1/27) . صححه الألباني وقال حديث صحيح.

إِلَى ركبتيه ووضع كفيه عَلَى فخذيه " إنّه مشهد يعكس قابلية واستعداد المتعلم أن يحقق نوعا من التجاور والتشارك مع من يريد أن يأخذ عنه الفائدة أو العلم، وهو النبي عليه الصلاة والسلام. لكن لسائل أن يسأل: هل إسناد الركبة ووضع الكف على فخد النبي من قبل الرجل الذي دخل مجلس النبي عليه السلام يحقق نوعا من العلاقة التخاطبية من منظور التصور اللساني الغربي على حسب ما أشارت إليه النظرية التداولية؟ نقول إنّ المتتبع فيما سبّي لدى الباحث اللساني الغربي لاكوف (lakoffe) بمبدأ التأدب في شمولية الخطاب، يدرك أنّ ما أشار إليه هذا الرجل يعكس بحق ما بينه سيد الخلق عليه السلام للرجل الداخل على مجلسه، ولكن تجاوز هذا النوع من المعاملة المتصفة في صفة السائل بما احتواه مبدأ التأدب إلى ما وراء ذلك على حسب ما تقتضيه سياقات الأحوال والمقامات؛ ذلك أنّ هذا المبدأ يقوم على ثلاث قواعد أساسية وهي[1]: قاعدة التعفف والتي تنص : لا تفرض نفسك على المخاطب، أي لتظل ملتزما متحفظا ولا تتطفل حتى لا تتجاوز حدود الآخرين. وقاعدة التخيير، والتي تنص: لتجعل من تخاطبه يتخذ الحكم والقرار بنفسه على نية الاستقلالية، وقاعدة التودد والتي تنص: لتظهر الود للمخاطب حتى يتحقق القرب منه.

✓ من باب الإنصاف العلمي إنّ ما أشار إليه لاكوف فيما يخص مبدأ التأدب في الخطاب له بعض الجهات يلتقي فيها مع ما وقع بين النبي عليه السلام والرجل الداخل على مجلسه(جبريل عليه السلام). غير أنّ هذا الأدب المشار إليه من قبل لاكوف إذا ما قورن بأدب الرجل السائل وجدنا بعد المشرقين بينهما؛ ذلك أنّ الأدب في عالم البشر تحدوه النسبية من كل مكان؛ فما تراه نفس في تعاملها مع الأدب إن هو إلا تصور ينطلق من مرجعية معينة، وهكذا دواليك مع جميع الخلق، إلا سيد الخلق المختار من قبل الله تعالى فإنّ مبدأ التأدب الذي حصل بينه وبين السائل (جبريل عليه السلام) ينطلق من ذلكم الحق الذي تفرّد الله به وهو أخلاقيات الوحي السائرة على حال لسان السائل، والمبينة على لسان حال النبي عليه السلام عن طريق مضامين الحوار الذي جرى بين السائل ونبي الرحمة عليه السلام.

[1] – ينظر عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجية الخطاب؛ مقاربة لغوية تداولية. المرجع السابق. ص:100 وما بعدها

✓ ثم إنّ ما قيده مبدأ التأدب من منظور العلاقة التخاطبية القائمة بين الباث والمرسل يجعل الباث يتقيد بقيود بشرية تصورية تتعلق بمجموعة من المسلمات أساسها الأول هو التقدير المحدود الذي لا يتجاوز الظاهرة أو الحوادث الملازمة والمتغيرة للوجود الإنساني، بخلاف مبدأ التأدب الذي عكس العلاقة التخاطبية بين السائل والنبي؛ إذ احتوى على شمولية مطلقة منبعها الله تعالى(الوحي أو أحكام الله تعالى المفروضة على العباد)؛ هذه الشمولية جعلت من السائل يحقق جوارا وتشاركا مع النبي عليه السلام والعكس صحيح، مما جعل فيما بعد الحوار أو المحاورة تسير وفق مبدأ التأدب السّاري مع طبيعة ما يتماشى مع مقتضيات دين الله تعالى، وهنا ضرب لأحد القواعد الثلاث التي يرتكز عليها مبدأ التأدب للاكوف، وهو أنّه في القاعدة الأولى قيدها ألا يفرض المخاطِب نفسه على المخاطَب، على غرار ما وقع بين السائل والنبي حين كان يجيبه، كان يقول دائما صدقت. وهنا الحري المسلم الموحّد يطرح التساؤل الذي دأبت عليه العلاقات التخاطبية البشرية وهو: من الذي له الصلاحية والشرعية أن يصدر حكم الصدق أو الكذب فيما يسمعه؛ هل الباث أم المتلقي؟ حدث في هذا الحوار بين الداخل إلى المسجد والنبي عليه السلام ما يتضارب مع قاعدة التعفف؛ ذلك أنّ السائل في الحديث هو جبريل عليه السلام غير المعروف لدى مجلس رسول الله، والسؤال الموجّه إلى النبي هو في الأصل موجّه إلى الحاضرين من الصحابة عليهم الرضوان، وعليه كانت إجابة النبي عليه السلام عبارة عن تحول من ذات الرجل على جهة الإرسال إلى جهة المتلقين المستمعين، وهنا تتحرك العلاقة التخاطبية بين جبريل عليه السلام والنبي عليه السلام من مستواها العمودي على سبيل الاختيار، إلى مستواها الأفقي على جهة الحاضرين من الصحابة(البلاغ والإبلاغ)، والذي يجعل هذا النوع من التخاطب يعطي لشرط التعفف بعده الشمولي أكثر مما حدّده لاكوف، هو قول السائل-جبريل- صدقت يا رسول الله. فإرسال كلمة الصدق في مقام التخاطب جعل المتلقين أنفسهم يستشعرون أنّ هناك شيئا يتجاوز محدودية العلاقة التخاطبية بين الرجل والنبي عليه السلام؛ فهي محدودية تعطي للباث والتلقي تحاورا واشتراكا ومن ثم تحاورا من نوع خاص؛ وعليه فكلمة – صدقت- الواردة على لسان حال جبريل عليه السلام، أعطت لمسار حركية العلاقة التخاطبية بعدا تداوليا تجاوز تلكم الضوابط المشار إليها من قبل لاكوف. إنّه التعفف السّاري ليس مع طبيعة من هم أحوج إلى فلسفة تعففية من بابها الوجودي الكوني،

ولكن مع من وصف نفسه-سبحانه وتعالى تقدست أسماءه وصفاته- بالمانع؛ الأمر الذي جعل ما يقوم به كل من جبريل على جهة التساؤل، والنبي في مقام الرد، يحققان معالم التعفف في مبدأ التأدب يسير وفق شمولية السؤال على حسب ما تقتضيه طبيعة العلاقة التخاطبية بين مرسل الخطاب ومتلقيه، وهما بذلك يجسدان من باب المسكوت عليه شرط المانع؛ على أساس أنّ التعفف في أصل الاستعمال ما سار على الامتناع والكفاف[1]وقد التزما كل من جبريل عليه السلام والنبي بهذا التعفف على غير ما أشارت إليه نظرية لاكوف.

✓ أبعد من ذلك أنّ قول عمر" **فأسند ركبتيه إِلَى ركبتيه ووضع كفيه عَلَى فخذيه** " يعكس من منظور العلاقة التخاطبية الغربية قاعدة التودد. ولكن هل التودّد كما أشار إليه لاكوف، أم هو التودّد السّاري مع طبيعة الحق الذي أُمر به النبي عليه السلام بتجسيد معالمه على حسب ما يحقق الرضا الرباني؟ لا شك أنّ التودّد الذي يستشفه القارئ المتخصص في العبارة التي أشار إليه عمر" **فأسند ركبتيه إِلَى ركبتيه ووضع كفيه عَلَى فخذيه** " يعطي للعلاقة التخاطبية الجارية بين الرجل والنبي عليه السلام بعدا شموليا لأخلاقية عالية سواء من جانب الرجل(جبريل عليه السلام) أو من جانب النبي عليه السلام مقام القدوة والبيان والتوجيه، ولذا كان من بين ما يعكسه مشهد إسناد الركبة ووضع الكف هو ذلكم التودد الذي علمه صاحب السؤال في حق من خاطبه وهو النبي عليه السلام؛ الشيء الذي جعل من هذا التودد يحقق حبا وتقاربا وتقديرا واعترافا وإقرارا من قبل صاحب السؤال. ولعمري هذه اللفتة اللطيفة-على حد تعبير القدامى- تجعل واقع العلاقات التخاطبية السائرة على ألسنة المصطفي عليه السلام تأخذ شرعية معرفية ومنهجية وإجرائية تضاهي-في اعتقادنا- ما حاول الغرب في نظريات تحليل الخطاب أن يقيدوه في مثل هذه القواعد أو الإجراءات، ولعل السبب في هذا النوع من التمايز الوجودي الكوني الرباني-على حد تعبير صاحب التفسير الكبير الفخر الدين الرازي- أنّ غالبية النظريات اللسانية الغربية حاولت أن تتعامل مع العلاقة التخاطبية بين المتخاطبين ليس على حسب الغاية التي جعل من خلالها الخطاب ملازما وعاكسا

[1] – ينظر قاموس المعجم الوسيط. مادة تعفف.

ومبينا للوجود الإنساني، بل راح يسير مع تلكم الخلفيات والمرجعيات التي تبناها كل منظر لساني غربي، ومن ثم إسقاطها على العلاقات التخاطبية أعطى فيما بعد تباينات على عدة مستويات من عالم المعرفة؛ مما أدى المتتبع أن يدرك تعارضات عدة في الطرح والمنهج والطريقة، وهذا على خلاف ما نجده في غالبية الخطابات النبوية التي كان منطلقها واحد لا شريك له، وهو سرّ الاصطفاء والاختيار من قبل خالق البرية سبحانه وتعالى، والعجيب أنّ المتخصص والمهتم فيما نطق به النبي عليه السلام أنّه على الرغم من تنوع الأحكام التي لازمت المصطفى عليه السلام منذ نزول الوحي إلا أنّ خطابه صلى الله عليه وسلم ظل محافظا على نسق نظامي واحد محكم في لفظه ومعناه ، يحوي على شمولية استغراقية استطاعت أن تستغرق مستلزمات العلاقات التخاطبية في زمنه عليه السلام وفي زمن لاحق وفي أزمنة ستظل كذلك باقية إلى قيام الساعة. إنّها قاعدة التودّد التي تحقق نوعا من التحبب والتقرب ليس فقط فيمن يرسل الخطاب ليظهر ذلكم التودّد المحدود بحدود العلاقة بين المرسل والمرسل إليه، بل هو التودد الشامل لكل الطرفين الباقي ما بقي مسار الخطاب يرجع إليه ويستدل به ويقتفى بأثره شكلا ومضمونا. مثل هذا النوع من القاعدة تجعل بحق العلاقات التخاطبية تؤتي أكلها على حسب ما تقتضيه طبيعة التواصل القائمة بين مرسل الخطاب ومتلقيه.

✓ بعدها نجد العلاقة التخاطبية بين الرجل والنبي عليه السلام تتخذ مسارا سمي في مجال النظرية التداولية بمبدأ "الاقتضاء" ، أو لربّما أطلق على ألسنة بعض المشتغلين في هذا المجال بالاستلزام الحواري[1]، وإن كنا لا نتفق مع من ذهب نحو هذا النوع من الإطلاق، لأنّ بين الاستلزام والاقتضاء بعد المشرقين؛ فلكل واحد منهما جهة تختص به وتميزه عن الآخر؛ إذ بين الفعل استلزم واقتضى لا يمكن شرط الطلب والتحقيق ومن

[1] – هو بكل بساطة عمل المعنى أو لزوم شيء عن طريق قول شيء آخر، أو بعبارة أدق هو شيء يعنيه مرسل الخطاب ويوحي به ويقترحه لكن يتجاوز الصورة الحرفية الخارجية ليدل على ما وراء ذلك على حسب ما تقتضيه طبيعة السياق الملازمة للقرائن. ينظر صلاح اسماعيل: نظرية المعنى في فلسفة بول جرايس، الدار المصرية السعودية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة(د. ط)، 25. ص: 78.

ثم المصاحبة يستوي فيهما الإطلاقان[1].المهم الاقتضاء من منظور التصور التداولي"...هو مثال حي، ونابض للأكثر الذي يتم إيصاله دون قول، والذي يمكن استدلاله بقرائن الأحوال والعلاقة بين القول والسياق"[2]،أو بعبارة أدق وبسيطة هو "المضمون الذي تبلّغه الجملة بكيفية غير صريحة"[3]. من هذا المنطلق فإنّنا نجد فيما نقله عمر بن الخطاب عليه الرضوان أنّ صيغة السؤال التي نطق بها الرجل (جبريل عليه السلام)"فقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام"؛ هي عبارة استطاعت أن تعكس من منظور العلاقة التخاطبية حقيقتين اثنتين: حقيقة ظاهرية، وأخرى تسير وفق ما أطلق عليه الأصوليون بالمسكوت عنه أو غير المصرّح به. أما الأولى فلأنّ الرجل دخل في مجلس رسول الله عليه الصلاة والسلام والصحابة حاضرون، لذا استوجب سياق الحال أن يتلفظ الرجل(جبريل عليه السلام) بلفظ(يا محمد) والتي تعطي للحاضرين أنّه رجل كباقي الخلق من حقّه أن يسأل ويستفسر على نية الفهم والخبر وأخذ المعرفة. لكن اللافت للنظر أنّ الرجل لما كان يوجّه السؤال، وينتهي سيد البشر من الإجابة عليه، يقول مباشرة الرجل: صدقت يا محمد. وهنا يتحرك مسار التخاطب من الدلالة المباشرة إلى غير المباشرة، وهو ما جعل عمر ولربما كثير من الصحابة يتعجبون من هذا النوع من الرد، وهو رد لم تصاحبه قرينة حتى تسهل عملية إدراك المعنى ومن ثم تعيين المقصد الملازم بين هذا الرجل وما يصدره من أقوال. أما في الحقيقة الثانية فلأنّ رسول الله عليه السلام عالم بحال الرجل وحال المقام الذي يحتله من حيث الوجود الذي هو مناف للوجود البشري عمقا لا ظاهريا؛ فإنّه عليه السلام كان يعلم الحكم الملازم للسؤال؛ إذ هو حكم ليس كالحكم الذي علمه المجلس وفق إطاره المتعارف عليه، بل هو الحكم

---

[1] – ربّما في مقام آخر من البحث والتنقيب في مجال من مجالات يكون فيها شرط الاستلزام والاقتضاء حاضرا في أي تصور معرفي، نحاول أن نبرهن عن الفارق المفاهيم والمصطلحاتي والمنهجي بين الإطلاقين بأدلة من التراث اللساني العربي الإسلامي والتراث الغربي.

[2] – أشواق محمد اسماعيل النجّار: الاقتضاء– دلالته وتطبيقاته في أسلوب القرآن الكريم– دار دجلة، عمّان، الأردن، د ط، 2007. ص:54.

[3] – آن روبول وجاك موشلار: التداولية اليوم–علم جديد في التواصل– ترجمة: سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني. ص:47.

الملازم والمصاحب لسر رسالة النبي عليه السلام من قبل ما يوحى إليه من رب العباد. فقول الرجل لنبي الله (صدقت) هو تأكيد للرابط الوسطي بين رب العباد والنبي عليه السلام؛ فمجيء جبريل عليه السلام عن طريق هذا المشهد المقدّر في علم الله تعالى، والسّاري على حال مجمع ومجلس رسول الله، إن هو إلا إجراء تمّ من خلاله شرط التخاطب بحضور كل مستلزمات الداخلية والخارجية، والتي استطاعت إلى حد كبير ومميز أن تعطي للعلاقة التخاطبية بين الرجل(صاحب السؤال) والنبي(الرد والحكم) بعدا تداوليا شاملا شمولية الحقيقة التي يحملها؛ تصورا ومنهجا وطريقة ومقصدا. هنا في هذا الصدد نعود لنقول في حق القاعدة الثانية من قواعد مبدأ التأدب في الخطاب من منظور لاكوف، إنّ جعل المخاطَب يتخذ قرارا بنفسه عن طريق ما يسمعه قد تجاوز جهات عدة من خلال أدبية الخطاب القائمة بين الرجل الداخل على النبي في مجلسه مع الصحابة؛ إذ هو سؤال أو تساؤل انبنى عليه شرط التخاطب وفق شمولية واسعة الأرجاء شملت المجلس من جهة(الدعوة والإرشاد المباشر وغير المباشر) وشملت أيضا تلكم المصداقية الربانية الإيمانية القائمة بين النبي وسرّ الرسالة، وهي شمولية تتجاوز محدودية التخاطب من مستواها البشري إلى مستواها ما وراء البشر. ما يمكن قوله: إنّ استعمال لفظ(يا محمد) دليل على أنّ المشهد التخاطبي بين الرجل والنبي يحقق بعدا اقتضائيا يتماشى إلى حد كبير مع ما أشرنا إليه سابقا في بداية المقال بالاستراتيجية التخاطبية التلميحية، وهي الاستراتجية التي تجعل إطلاق الخطاب يأخذ تضمينا يعرفه كل من السائل والمجيب أو المرسل والمتلقي.

الحديث الثاني:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل. ألا إنّ سلعة الله غالية، ألا إنّ سلعة الله الجنة"[1].

تعقيب في رحاب العلاقات التخاطبية:

الناظر إلى ما حققته العناصر اللغوية فيما بينها من جهة بعدها الشمولي ملازم لشرط العلاقة التخاطبية؛ على أساس أنّها قد بيّنت عدة حقائق ربانية إيمانية أخلاقية

[1] – رواه الترميذي. (4/633)، رقم (2450)، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في السلسلة، رقم: (954).

أشار إليها النبي عليه السلام عن طريق هذا النوع من الخطاب الذي تطغى عليه استراتيجية توزعت على جهتين اثنتين: جهة لامست شيئا من لوازم التوجيه، وجهة تجاوزت الفعل التوجيهي لتصل إلى بعض من مستلزمات الفعل الإقناعي؛ كيف ذلك؟

لقد بدأ نص الحديث النبوي بحقيقة بينها القرآن في أكثر من موطن، وهي الخوف الذي أوجبه الله تعالى على كل عابد مسلم يرجو لقاء ربّه ويخاف عذابه. غير أنّ هذه الحقيقة المسلم بها من قبل الوحي القرآني والمبينة على لسان حال النبي عليه السلام وردت في نصه عليه السلام ملازمة ومصاحبة لشرط أساسي وهو(الإدلاج)؛ ذلك أنّه من أراد أن يتحقق فيه شرط الخوف الرباني ينبغي أن يدلج ليلا والناس نيام، وهو الإدلاج الذي يعكس بعض مستلزمات الخوف الإلهي؛ فيتحقق حينها الرضا الرباني للعبد الذي التزم بما بينه ودعا إليه المصطفى عليه السلام.

لكن إذا نظرنا من منظور مستلزمات العلاقات التخاطبية نجد أنّ إطلاق النبي عليه السلام صفة وحقيقة الخوف الملازمة لشرط الإدلاج لم تكن موجهة إلى شخص أو جماعة معينة، بل الإرسال شمل جهتين اثنتين: جهة هي مقررة في واقع الوحي القرآني فهي من ثمة حقيقة مسلم بها أُمر بها النبي عليه السلام أن يُبيّنها للناس، وعليه فالعلاقة التخاطبية في هذا النوع من الإرسال هي حقيقة تتجاوز أذهان المتلقين من الصحابة عليهم الرضوان[1]، وجهة هي موجهة أصلا إلى مجلس رسول الله عليه السلام من الصحابة عليهم الرضوان. غير أنّ هذه الحقيقة التي جاءت لتحقق نوعا من التلازم التعالقي غير المعهود، استوجب من نبي الرحمة عليه السلام أن يعطي لهذا النوع من التعالق شيئا من لوازم التبيان والوضوح والتقريب حتى يدرك من قبل المتلقين؛ فراح عليه السلام يوضح هذه الحقيقة باستخدام أداة واحدة من الأدوات التي أشار إليها النحاة في أبحاثهم ولكنها أخذت بعدا استغراقيا شاملا عن طريق ما سمي في مجال تحليل الخطاب: بالأسلوب الإقناعي الذي استطاع- في حدود علمنا- أن يجعل العلاقة التخاطبية بين النبي عليه السلام وصحابته

[1] – لو كان سياق المقام غير مقيّد بأوراق معدودة في هذا النوع من المقالات لتفصلنا في هذه الحقيقة لننظر شمولية العلاقة التخاطبية القائمة والملازمة بين شخص النبي عليه السلام وواقع الحق الذي أوجبه الله تعالى على نبيه. ولكن نتركها في مناسبات أخرى إن طال الله في عمرنا لنبين معالمها علها قدمت للمسلم الموحد حقائق يستنير بها في حياته اليومية .

الكرام تأخذ بعدا إيمانيا ربانيا توجيهيا للذي يريد فعلا أن يعيش في رحاب الإدلاج وهو يجسد معالم الخوف الرباني كما أراده الله تعالى وسار عليه نبي الرحمة عليه السلام.

قال النبي عليه السلام "**ألا إنّ سلعة الله غالية، ألا إنّ سلعة الله الجنة**". المتمعن والمتدبر في هذا النوع من الإرسال التخاطبي وليس الخطابي، لأنه موجه إلى الصحابة عليهم الرضوان، يجد فيه قرينة لفظية(ظاهرة) ومعنوية متجددة ومتغيرة عن طريق سياق الحال الملازم لسياق المقام، وهي الأداة(**ألا**)؛ هذه الأداة لوحدها-يا سبحان الله- جعلت الخطاب النبوي عليه السلام يعكس حقيقة إيمانية ربانية تربوية على حسب ما لازمت هذه الأداة (**ألا**) من حكم إلهي حقق تقاربا بين شرط الخوف من الله تعالى والدخول إلى جنة الرضوان؛ كيف ذلك؟

الثابت لدى أهل اللغة أنّ (**ألا**) تفيد التنبيه على حسب ما يستدعيه المرسل من كلام تجاه المرسل إليه. أو بعبارة النحويين حرف استفتاح يبتدأ به الكلام للتنبيه والتحقيق إذْ يفيد توكيد مضمون الجملة[1]؛ على أساس أن ما يُفهم التنبيه أشمل وأعمق مما يفهم من إقامة الاتصال. وعليه فإنّ أهم ما احتوته أداة(**ألا**) التنبيهية في خطاب النبي عليه السلام يتمثل في النقاط الآتية:

- افتتاح الكلام بأداة التنبيه إيماء إلى أهمية شأنه. ولعل هذا الشأن هو فيما سيشير إليه النبي عليه السلام من حقيقة إيمانية لها علاقة بما سبق.
- لا يمكن أن ينبه المتكلم المتلقي السامع إلا إذا كان الكلام مهما جدا، ومن ثم يحب المتكلم أن يسمعه السامع. وهنا بالذات تتدخل العلاقة التخاطبية من جهتين اثنتين: الأولى إذا كان المتكلم على يقين أنّ كلامه يقوم على أساس الحق فإنّه يدرك إدراكا يقينيا أنّ كلامه سيكون محل قبول لدى السامع المتلقي، وهذا ما وجدناه بحق في ما أشار إليه النبي عليه السلام حين أكّد الحقيقة الأولى بما يحقق نوعا من الاستلزام التخاطبي مع ورود الحكم بعد (**ألا**) التنبيهية حين قال المصطفى عليه السلام(ألا إنّ سلعة الله غالية،

[1] – يقول الزمخشري في هذا المقام " ... ألا مركبة من همزة الاستفهام، وحرف النفي لإعطاء معنى التنبيه على تحقق ما بعدها، والاستفهام إذا دخل على النفي أفاد تحقيقاً." ينظر الكشاف. 1/ 61-62. ينظر في هذا الصدد إلى: شرح الكافية لابن مالك. وشرح الكافية للرضي، والخصائص لابن جني وهلم جرا

ألا إن سلعة الله الجنة) مقام هذا البيان الإشاري لما قبله عبارة عن لفت انتباه المستمع إلى أنّ من سار على سبيل الإدلاج والناس نيام؛ فإنّه حتما سيطلب السلعة الغالية التي لا سلعة بعدها ولا قبلها. وهنا نجد ملامح الاستراتيجية الإقناعية تظهر بعض أبعادها في الأداة (ألا) المستخدمة من قبل النبي عليه السلام، مما جعل المتلقي لا يقف عند محدودية الخطاب الخارجي بل إلى ما يعكسه الخطاب من دلالة غير مباشرة، تدرك عن طريق مستلزمات الخطاب. والثانية إذا كان المتكلم على نسبة قليلة من اليقين بالنسبة لمحل القبول من قبل المتلقي المستمع، وهذا النوع من الخطاب سار على ألسنة كثير من الخلق الذين لا يربطهم رابط الحق الذي أوجبه رب العباد في محكم تنزيله؛ فإنّه لن يوجد على الإطلاق كلاما يرسله الباث إلى المتلقي مصحوبا بقين مطلق من حيث القبول لدى المتلقي إلا إذا كان هذا الكلام ملازما ومصاحبا ومقترنا بما يتماشى مع كلام الحق سبحانه وتعالى حكما ومقصدا. لذا لم تتحل الجهة الثانية مثلما عليه الأمر في الجهة الأولى؛ الشيء الذي جعل من سيد الخلق عليه الصلاة والسلام أن يعطي للمتلقي حكما، ثم بعدها ينقل المتلقي إلى حيثيات هذا الحكم إلى سياق معين تجسّد عن طريقها ما هو قائم في الحكم، هو الخوف الملازم بالإدلاج والعاطي في نهاية المطاف تلكم السلعة الغالية القائمة في رحاب جنة الرضوان.

- علاقة (ألا) التنبيهية بما هو سار في ذلكم الحق الذي دعا إليه النبي عليه السلام؛ الأمر الذي جعل خطاب النبي عليه السلام أن يكون محل خطابه يحقق علاقة تخاطبية : أولا مع الحق على سبيل الاختيار والاصطفاء(فهو مختار من قبل الله تعالى)، وثانيا مع من يرسل إليه الخطاب وهو واقع الصحابة عليهم الرضوان على اختلاف مستوياتهم(وهذا سبيل الدعوة والإرشاد). لكن هذه العلاقة التخاطبية لربّما أعطت لنا على سبيل الأداة المستخدمة في كلامه عليه السلام بعدا إيمانيا ربانيا لا يستطيع أن يعرفه إلا من رزقه الله تعالى سرّا عميقا وفكر ثاقبا وتخريجا يتجاوز حدود الخطاب السطحي إلى ما وراء الخطاب، وهو أنّ الخطاب النبوي المرسل على واقع الصحابة إذا ما استطاع الواحد من المتلقين أن يستقبله استقبالا خاصا بحرمته وقدسيته وضوابطه الشرعية وحقائقه الإيمانية، سيجد لا محالة أن كلامه عليه السلام حق. وهذه المصداقية لن تتحقق في قلوب المتلقين إلا إذا كان صاحب المرسل واثقا كل الوثوق من أنّ كلامه هذا سيصادر

منطقة القبول والرضا والتسليم، لأنّه لا يمكن لهذا النوع من الكلام أو الخطاب أن يتجاوز منطقة الحق؛ فامتثال الخطاب النبوي بهذه المنطقة القائمة في الحق الرباني هو دليل على تحقيق تأثير في ذوات المستمعين المتلقين للخطاب النبوي ظاهرا والرباني باطنا، وهنا بالذات نجد العلاقة التخاطبية في ظل هذه الأداة (ألا) تعطي لشمولية الخطاب وقعا خاصا لدى المتلقي وفق ما يتماشى مع تلكم المستلزمات التخاطبية التي هي في الأصل تسير على مبدأ النسبية بين تصورات البشر؛ وهي لعمري صفة لازمت الخطاب النبوي لوحده بحكم المشكاة الربانية الإيمانية التي كان ينطلق منها، وهي ما جعلت مبدأ العلاقات التخاطبية سواء في هذا الحديث أو غيره من الأحاديث الأخرى يحدوها نوع من الشمولية الاستغراقية التي استغرقت ذلكم الزمان النبوي وهي في تلازم استغراقي كل الأزمنة التي جاءت بعد النبي ولا تزال إلى قيام الساعة.

الحديث الثالث:

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "مثلُ الصلوات الخمس كمثل نهر جار غَمر على باب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات"[1].

إنّ المتأمل فيما نطق به النبي عليه الصلاة والسلام، يدرك أنّه قد احتوى على بيان تمثيلي ضربه النبي عليه السلام من خلال خطابه للمتلقي المستمع في شأن الصلوات الخمس؛ ذلك أنّ الصورة التي أشار إليها الخطاب النبوي جعلت المتلقي المسلم يستحضر عقله وقلبه عن طريق ما يمليه هذا النوع من الخطاب من أبعاد إيمانية ، وعليه فإنّ هذا التمثيل"... يضع المخاطب في موقف لا يستطيع معه أن ينكر أنّ من يغتسل بالماء كل يوم خمس مرات لا يبقى من وسخه شيء، وهذا يقتضي ضمنيا عن طريق التمثيل أنّ إقامة المسلم الصلوات المفروضة الخمس، وتأديته لها بالكيفية المشروعة نطهره من الآثام والذنوب، بحكم هذا التشابه غي العلاقة المتمثل في التطهير والغسل والتأدية"[2].

---

[1]- صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا، وترفع به الدرجات، رقم:668.

[2]- علي بعداش: الأبعاد الحجاجية للصورة البيانية في الخطاب النبوي الشريف. مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية. العدد 2، جوان،

غير أنّ الذي نريد الإشارة إليه فيما له علاقة بمبدأ التخاطب، أنّ المتلقي عند سماعه لفعل الصلوات الخمس بما يلازمها من هذا النوع من التلازم، يستحضره مشهد رباني في شأن الصورة الملازمة للصلوات عن طريق ما سمي في الاستراتجيات التخاطبية الإقناعية بالتضمين؛ إذ يستطيع المتلقي المسلم أن يدرك هذا المقتضى الضمني أو التضميني الذي هو في الأصل ذلكم الإقناع الذي يرتكز في ذهن وعقل المسلم؛ فيستنتج خلالها البعد الإيماني الرباني للصلوات الخمس ومنزلتها الخاصة في دين الله تعالى.

الحديث الرابع:

حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا أبو أسامة عن بريد بن عبد الله عن أبي بردة عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال" مَثَلُ البَيْتِ الذي يُذكَرُ اللهُ فيهِ، والبَيتِ الذي لا يُذكرُ اللهُ فيه، مَثلُ الحيّ والميت"[1].

عندما نتأمل مستلزمات الخطاب النبوي من جهة التخاطب الذي يوليه عليه السلام، نجد أنّ ورود الفعل المبني للمجهول الملازم لحدث الذكر، استطاع أن يعطي للتركيب بعدا خاصا ومتميزا يقوم على مبدأ الالتفات الذي أراده النبي عليه السلام من وراء الخطاب؛ ذلك أنّ الفعل(يُذكر) المبني للمجهول يحقق نوعا من التعالق التلازمي في سياقه التخاطبي،مما جعل المتلقي يدرك أنّ البيت الملازم والمصاحب لذكر الله تعالى هو البيت الذي التزم بحدود الله تعالى والسير على ما سار عليه المصطفى عليه السلام، وهو على خلاف البيت الذي لا يُذكر فيه الله تعالى؛ فهو خال من تلكم النفحات والإشراقات الربانية الإيمانية.

مثل هذا النوع من البيان النبوي للتلازم التعالقي بين البيت وملازمة ذكر الله تعالى فيه، جعل العلاقة التخاطبية بين الخطاب النبوي والمتلقي له، ينتج عنها إقناعا بهذا النوع من التلازم الذي يقتضي استجابة وإذعانا وخضوعا.

واقع المسلم من خلال الأحاديث السابقة:

لما كان سيد البشر عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم قرآنا يمشي بين الناس أو الخَلق-على حد تعبير السيدة الفاضلة عائشة رضوان الله عليها- انعكست هذه الحقيقة

[1]– أخرجه البخاري ، الدعوات. وصحيح مسلم في صلاة المسافرين وقصرها.

على سنته الطاهرة؛ فكان فعل المشي والحركة يستوجبان على جهة الفعل التخاطبي المتجدد والمتغير"... سياقات مقامية حالية للأحكام، تتكيف بمقتضاها لتواكب على الدوام نطورها في أحوالها المتغيرة، سلما وحربا، قوة وضعفا، استقامة وانحرافا، خيرا وشرا، صلاحا وفسادا ... وقد أثر عنه عليه السلام أنّه كان يجيب السائلين بحسب أحوالهم وما يصلح لها"[1].

على هذا القصد وجب على المسلم الموحّد لله تعالى والتابع لمنهج المصطفى عليه الصلاة والسلام أن يستنير بما نطق به النبي عليه السلام في الأحاديث الصحيحة التي جاءت لتنير درب حياة المسلم نحو العمل لتحقيق رضاه والسير على نهجه إلى يوم يلقاه. وهذا الأمر لن يتحقق للمسلم إلا إذا فهم جيدا الواقع الذي يعيشه حتى يتسنى له أن يسقط تلكم التعاليم النبوية الإيمانية على كل حادثة تلازمه في واقعه الحضاري، وعليه فإنّ فهم الواقع الإنساني-على حد تعبير عبد المجيد النجار-"... يغدو عاملا بالغ الأهمية في التدين، ولا يقل أهمية عن فهم الدين نفسه، فهما الشرطان المتلازمان في مرحلة الفهم، اللذان يعتبران الخطوة الأولى في سبيل تحقيق الدين في الواقع، أي في سبيل تحقيق التدين"[2].

وبعيدا عن الشمولية القائمة في ذلكم التلازم التعالقي بين حياة المسلم وواقع الدين الإسلامي المطلق الذي لا يمكن أن ينتهي على الإطلاق؛ فإنّنا سنحصر أهم ما ينبغي أن يأخذه المسلم الموحّد من خلال الأحاديث الثلاثة التي أشرنا إليها سابقا؛ فنقول والله المستعان ما يأتي:

- نعتقد على حسب ما حاولنا تتبعه في غالبية شراح حديث الإحسان-كما يسمى عند أهل الاختصاص-[3] أنّ مضمونه يقوم على حقيقة واحدة قام في رحابها ما له علاقة بالبعد الشمولي للإحسان، وهو أن يعبد المسلم ربّه كأنّه يراه فإن لم يكن يراه فهو يراه تعالى.

---

[1]- سعيد بشار: فقه الواقع، سياق خارجي ومقامي للنص؛ بحث في معادلة فقه الواقع لفقه النص في تنزيل وتكييف الأحكام. أعمال الندوة العلمية الدولية تحت عنوان: أهمية اعتبار السياق في المجالات التشريعية وصلته بسلامة العمل بالأحكام. الرابطة المحمدية للعلماء. ط،1. 2007،الرباط. ص:677.

[2]- عبد الحميد النجار: في فقه التدين فهما وتنزيلا. كتاب الأمة، العدد 23، 1410. 1/32-33.

[3]- ينظر شراح الحديث من مثل: فتح الباري شرح صحيح البخاري: العسقلاني. دار المعرفة، بيروت، 1379. وكذلك العرف الشذى شرح سنن الترمذي: الكشميري. وشرح المختار من صحيح مسلم: محمد بن محمد أبو شهبة وغيرهم كثر.

والفائدة التي يجنيها المسلم في عصرنا هذا هو استحضار هذه الحقيقة في ظل ما يمكن أن نطلق عليه بفلسفة الإحسان السائرة مع مقتضيات الرضا الرباني؛ ذلك أنّ الإحسان إذا ما استقر في حياة المسلم روحا ونفسا وقلبا ؛ فإنّه يعكس هذا الاستقرار نورا ونبراسا يستضيء به المسلم بينه وبين نفسه، وبينه وبين الغير، وهنا تتحرك حياة المسلم المستنيرة بنور الله السّاري على قلب سيد الخلق عن طريق تلكم العلاقات التخاطبية التي أشار إليها المصطفى عليه السلام بينه وبين الرجل الداخل عليه(جبريل عليه السلام)؛ فيستقي المسلم حينها تلكم الأدبيات التخاطبية شكلا(أسند ركبتيه إلى ركبتيه .....) ومضمونا(صدقت يا رسول الله)؛ الشيء الذي يجعل من حياة المسلم أن تكون على بينة من ربه ومن تعاليم نبيه عليه السلام.

- إنّ من مستلزمات الإحسان في حياة المسلم أن يظل دائما وأبدا يراقب ربّه تعالى في السر والعلن؛ فهو معه في كل لحظة، وهو إذ يتيقن بهذا اليقين فإنّ حياته تكون كلها منبعها من الإحسان بمعناه الواسع المشار من قبل النبي عليه السلام في ذلكم السلم الحجاجي المبارك والممدوح بينه وبين جبريل عليه السلام، والذي استطاع أن يخلّف في حياة المسلم نورا ونبراسا يسير على أثره. إنّ الإحسان من منظور المسلم الذي يعيش هذا العصر لا يتوقف عند تلكم المعاملة الخارجية، بل يتجاوز ذلك ليصل إلى فلسفة المعاملة الملازمة لفلسفة الدين الإسلامي؛ فيجسد معالم أخلاقيات ما سار عليها نبي الرحمة في حياته الداخلية والخارجية؛ الأمر الذي يجعل الإحسان ينبثق من عمق شخصية هذا المسلم الذي يعيش واقعا حضاريا طغت عليه الماديات وابتعدت الروحانيات من حسبانه؛ فبوجود مثل هذه النفوس الطاهرة الزكية ممن آمن وتيقن في شرعية الإحسان يتحقق النصر الرباني الإيماني الأخلاقي على مثل هذه الحقائق المزيفة التي لا تسمن ولا تغني من جوع. إنّه إيمان المسلم القوي المنبثق من عمق فلسفة الإحسان بمعناها الواسع سواء من منظور ما نطق به الوحي القرآني أو ما جسّده نبي الرحمة في حياته أو ما سار عليه الصحابة رضوان الله عليهم في زمنهم،كل هذا وذالك يؤهل المسلم أن يعيش بالإحسان ويتنفس من خلاله ويتقرب من خلاله ويدافع من خلاله ويجاهد في سبيله ويصدر موقفا صادقا ومخلصا في رحاب الإحسان. والله لقد صدق الخطاب النبي عليه السلام حين قال: الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك. إنّها الرؤيا والرعاية

والمصاحبة والملازمة والمعية التي تظل مع حياة المسلم الذي آمن بسر الإحسان النبوي المشار إليه من قبل تلكم العلاقة التخاطبية الشاملة الاستغراقية التي ستستغرق الزمان والمكان .

الحديث الثاني:

أما في الحديث الثاني فنجد مسار العلاقة التخاطبية يتخذ في حياة المسلم منحى آخر؛ فبعدما يستقر الإحسان في ذات المسلم؛ روحا ونفسا وقلبا وعقلا، تحط رحال مضامين هذا الإحسان في حياة المسلم على مقتضيات الخوف الرباني الذي متى استقر وثبت في عالم المسلم الداخلي فإنّه يحركه لا محالة إلى الوقوف عند محارم الله تعالى فيعظمها تعظيما يليق بمقامها، وهنا نجد حياة المسلم لا يمكن أن تنسلخ عما نبه إليه الخطاب النبوي الشامل في تلكم الأداة المشار إليها في قوله(**ألا**) ومستلزماتها الإقناعية التلميحية التوجيهية التي تجعل المسلم يحقق مباشرة فعل الإدلاج والناس نيام؛ فيعيش في رحاب الحق تعالى ساجدا، ذاكرا، باكيا، مستغفرا، ناجيا، محتسبا، داعيا، مستحضرا، ساقطا، مبينا، فاصحا، مما يدركه ويعيه ويستوعبه من خلال ساعات الإدلاج الربانية؛ هذه الساعات هي نفحات ربانية إلهية لا يعيشها بحب وصبر وتحمل واحتساب إلا المسلم الموحّد القانت لله ومع الله وفي سبيل الله تعالى وتقدس؛ فيتحقق حينها التوفيق الرباني لهذا المسلم؛ فيكون نهاره في رحاب الإحسان ومستلزماته التخاطبية مع عالم الخلق(فعل الخير بأنواعه المتعددة)، وعالم الخالق (استحضار عظمة الله تعالى على نية المراقبة). وأما ليله فهو تجسيد معالم الإحسان في جنبات الحق عن طريق فعل التقرب والالتجاء من الله تعالى.

مثل هذه المعاني التي متى استقرت في نفسية المسلم من جهتي: الإحسان والخوف من الله تعالى؛ فإنّها لا محالة تجعله يعيش واقعه الحضاري والثقافي والاجتماعي والنفسي والوجودي والكوني على مختلف سياقاته وخلفياته؛ إذ يكفيه شرفا ومنزلة أن المنبع الذي يستقي منه هذه القوة الربانية الإيمانية هو من تلكم العلاقات التخاطبية التي ألقاها سيد البشر في عبارات محدودة من حيث عدد عناصرها اللغوية، ولكنها حاوية في الوقت آنه على اللانهائي من المعاني والأسرار والأبعاد التي يستنير بها المسلم في واقعه المعيش.

الحديث الثالث:

هنا نجد حياة المسلم في هذا الواقع تنتقل سلمه الوجودي الكوني الملازمين لسر الإحسان والخوف من الله تعالى، إلى ذلكم الرباط الزمني شكلا والديمومي معنا وروحا؛ فهو في رباط دائم ومستمر في نهاره وبعض أجزاء الليل بخمس صلوات، وليله الدائم مرتبط بتهجد لا يخرج عن الصلاة، ولكن من نوع آخر من حيث التعبد والالتجاء والتقرب. ففي الصلوات الخمس هي عبادة يتقوى المسلم من خلالها وهو في هذا الزمن الحضاري الذي تحكمه مجموعة من المسلمات الفانية إن أطاعها وأطاع بعض جهاتها هلك وأهلك من معه لاسيّما إذا كان مسؤولا، أما إذا استحضر مستلزمات التخاطب فيما يخص الإحسان الملازم للخوف فإنّه لا محالة سيعيش في ذلكم الرباط التعبدي الذي يقيده خمس مرات في اليوم، وهو الرباط الذي من خلاله يكون قدوة لغيره في هذا الواقع الحضاري الذي طغت فيه المادية وأصبحت هي الأساس في المعايير.

إنّ الخوف كما بينه سيد الخلق للمسلم الذي يريد سلعة الله الغالية وهي الجنة، قد قيده عليه السلام بمستلزمات إذا حافظ عليها المسلم فإنّ حرارة الخوف من الخالق تعالى تظل ملازمة ومصاحبة معه ما حيي، وهو فعل الإدلاج الذي متى توزعت جهاته توزيعا محكما على حسب ما فعله المصطفى عليه السلام في حياته وما سار عليه الصحابة عليهم الرضوان؛ فإنّه سيجعل المسلم يحقق ذلكم السر الرباني الذي وصف به عباده في قوله تعالى{تتجافى جنوبهم عن المضاجع ....}(السجدة: الآية 16).

الحديث الرابع:

بعد أن يستقر الإيماني الرباني في قلب المسلم وهو يسير وفق سر الإحسان الملازم لسر الخوف والمصاحب لسر التعبد غير المنقطع، يأتي مقام آخر هو ليس ببعيد عما سبق، وهو البيت. لكن طبيعة سيد الخلق عليه السلام راح يبين في الحديث الرابع منزلة البيت الذي يحدوه ذكر الله من كل جانب، وهو الذكر الذي لم يرسله صلى الله عليه وسلم في خطابه على ما سمي في مجال تحليل الخطاب بالقوة الاستلزامية المباشرة، ولكن قال" مثل البيت الذي يذكر الله فيه والذي لا يذكر....." فهي إشارة تجعل المسلم في زمننا هذا يحرص كل الحرص الشديد أن يكون بيته تفوح منه رائحة طيبة أساسها الإيمان واتباع أخلاق النبي عليه الصلاة والسلام.

لكن طبيعة العلاقة التخاطبية التي أرسلها النبي عليه السلام لم تقيّد مسار الذكر، بل تركته على الإطلاق، هنا لفتة لطيفة أيضا يستقيها المسلم الحري الواعي الذكي

من خلال مفهوم لفظ(الذكر) فيعلم حينها أنّ التخاطب من جهة الذكر ورد على سبيل المبني للمجهول لا المعلوم، وهي إشارة إلى أولي الألباب ليتخذوا الذكر حجرا أساسيا في حياتهم اليومية والليلية فيعيشون مع ربهم سبحانه وتعالى، ويعيش الحق سبحانه معهم؛ فتتجسّد حينها معالم قوله تعالى{فاذكروني أذكركم}(البقرة: الآية152).

إنّ المسلم حينما يتعامل مع مقتضيات الخطاب النبوي في شأن شمولية مفهوم البيت المسلم، يدرك أنّ حياة المسلم لا تكتفي أن ترتبط بالحق روحا وقلبا وجسدا وتبتعد عن المكان الذي هو جزء أساسي من حياة المسلم؛ ذلك أنّ المكان الذي يستقر فيه المسلم هو مكان ينبغي أن يحقق تلازما تعالقيا مع مقتضيات الإحسان والخوف والتعبد؛ فتكون حياة المسلم في هذا الواقع الحضاري تحوي على مأوى أو على بيت يتقوى من خلاله بزاد الإيمان والتوحيد والأخلاق وغيرها ليعيش معالم ذلك في ما تكالبت ولا تزال-للأسف الشديد- الحضارة على خلفياتها المتنوعة بالعديد من الملاهي التي لا تعد ولا تحصى، والموفّق من وفقه الله تعالى واستطاع أن يثبت أمام هذا النوع من الواقع المر.

لعل امتياز هذا البيت بذكر الله تعالى يستطيع أن يخلف في حياة المسلم الموحّد ذرية صالحة قانتة مؤمنة واعية ثابتة على الحق الذي استقى منه المسلم حياته من تعاليم المصطفى عليه السلام عن طريق تلكم العلاقات التخاطبية المتعددة والمتنوعة على حسب ما اقتضته السياقات والمقامات التي أشار إليها المصطفى في زمنه وفي الزمن اللاحق إلى قيام الساعة؛ الشيء الذي يجعل من نسل هذا المسلم يسير على ما سار عليه من اتباع سيد الخلق عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم؛ فيؤمن بأنّ هذا الخطاب النبوي هو في الأصل صالح لكل زمان ومكان؛ صالح في العبادات والمعاملات وفي كل شيء صغر أو كبر إلا ويجعل الفرد يعيش لحظات إيمانية يستطيع أن يضاهي بها كل مستلزمات الواقع الحضاري بكل صوره وخلفياته ومرجعياته.

ديننا الإسلامي في أمس الحاجة أن يُفتّق ويفجّر من الداخل لتظهر أسراره الإيمانية الربانية الأخلاقية التي تجعل المسلم الموحّد يعيش عصره هذا بعصر ذهبي عاش من خلاله أنبياء الله تعالى عامة ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم على وجه أخص. وهذا لن يتحقق – في اعتقادنا- إلا إذا فتحنا تلكم النافذة الواسعة الأرجاء نطل من خلالها على أنفسنا أولا ، ثم على غيرنا ثانيا، وثالثا نقيم في رحاب هذا وذاك ما يجعلنا نعيش زمننا الحاضر بمعية

الماضي في رحاب الحق الذي ارتضاه الله تعالى: أولا لنبيه عليه السلام، وثانيا لأمته، وما ذلك على الله بعزيز.

قائمة المراجع:

القرآن الكريم

- ابن القيم،الجوزية. (1998). زاد المعاد في هدي خير العباد، ط2، بيروت. لبنان: مؤسسة الرسالة.
- ابن جني، الموصلي. (1002). الخصائص . تحقيق: محمد علي النجار. القاهرة: دار الكتب المصرية.
- ابن مالك.(1982). شرح الكافية الشافية. تحقيق: عبد المنعم أحمد هريدي . ط1، جامعة أم القرى، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة.
- أوليفيير وبول. (2001). طبيعة البلاغة ووظيفتها. ترجمة: الغروس المبارك. مجلة نوافذ، النادي الأدبي بجدة، ع16. http://mohamedrabeea.net/list.aspx?bookId=16345
- بعداش، علي. (2017). الأبعاد الحجاجية للصورة البيانية في الخطاب النبوي الشريف. مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية. 14(1): 149-161. https://www.asjp.cerist.dz/en/article/30127
- الرازي، الفخر الدين. (1999). المحصول في علم الأصول. علّق عليه ووضع حواشيه محمد عبد القادر عطا، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية.
- روبول، آن وموشلار، جاك. (2003). التداولية اليوم-علم جديد في التواصل- ترجمة: سيف الدين جغفوس ومحمد الشيباني. لبنان: المنظمة العربية للترجمة.
- الزمخشري. (1407ه). الكشاف عن غوامض التنزيل. ط3، بيروت: دار الكتاب العربي.
- الزنتاني، عبد الحميد. (1993). أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية، (ط2)، ليبيا- تونس: الدار العربية للكتاب.
- سعيد، بشار. (2007). فقه الواقع، سياق خارجي ومقامي للنص؛ بحث في معادلة فقه الواقع لفقه النص في تنزيل وتكييف الأحكام. أعمال الندوة العلمية الدولية

تحت عنوان: أهمية اعتبار السياق في المجالات التشريعية وصلته بسلامة العمل بالأحكام. الرابطة المحمدية للعلماء. ط1، الرباط.

- سعيد، علي اسماعيل. (2002). السنة النبوية رؤية تربوية، القاهرة: دار الفكر العربي.
- سعيد، علي اسماعيل. (2012). أصول التربية الإسلامية، القاهرة: دار السلام.
- الشّهريّ، عبد الهادي بن ظافر. (2015). استراتيجيات الخطاب- مقاربة لغوية تداولية- ط2، عمان: دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع..
- صلاح، اسماعيل. (2007). نظرية المعنى في فلسفة بول جرايس، القاهرة: الدار المصرية السعودية للطباعة والنشر والتوزيع.
- طه، عبد الرحمن. (2000). في أصول الحوار وتجديد علم الكلام. (ط2)، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
- العسقلاني. (1379ه). فتح الباري شرح صحيح البخاري. بيروت: دار المعرفة.
- القرطبي. (2006). الجامع لأحكام القرآن. بيروت، لبنان: مؤسسة الرسالة،
- مسلم. (2010). صحيح مسلم. بيروت، لبنان: دار المعرفة.
- النجّار، أشواق محمد اسماعيل. (2007). الاقتضاء- دلالته وتطبيقاته في أسلوب القرآن الكريم- عمّان، الأردن: دار دجلة،.
- النجار، عبد الحميد. (1989). في فقه التدين فهما وتنزيلا. كتاب الأمة، مصر: مطابع الأخبار.
- النحولاوي، عبد الرحمن. (2007). أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والأسرة والمجتمع، دمشق، سوريا: دار الفكر .